نشر بمجلة "أمل " العدد 30 عام 2005 ص.(26-53)

الحياة التعليمية في سبتة الوسيطية
(القرنان 7 و 8 هـ / 13 و 14 م)

يستمد موضوع التعليم في سبتة الوسيطية أهميته من الدور الكبير الذي لعبته هذه المدينة في الحياة المغربية الاقتصادية والسياسية والثقافية في فترة الدراسة، وكذلك من كونه ينبش في ماض مغربي مازال يسدل ظلاله على واقعنا التعليمي الحالي ويفسر – ربما– بعض جوانبه وملامحه ويساعد فهمه على حل بعض مشاكله، كما يحاول المساهمة في دراسة موضوع قلما يتم الاهتمام به. ويتطلع المقال إلى إعطاء لمحة سريعة عن الحياة اليومية لهذه المدينة وتركيز الاهتمام على مختلف جوانب نظامها التعليمي بالوقوف عند مختلف جوانب عملية التعليم والتعلم.

1- ملامح من حياة سبتة .
الوضع السياسي :

شكلت معركة العقاب 609 هـــ/ 1212م بداية مرحلة جديدة في تاريخ المغرب الموحدي. فبعدها مباشرة تسرب الوهن والضعف إلى كل مناحي الحياة داخل الإمبراطورية الشاسعة الأطراف. ولم تكن سبتة المدينة الإستراتيجية في معزل عن هـذه الأزمة وتبعاتها حيث شاركت في الاضطرابات والانقلابات السياسية بفعالية. فمنذ سنة 624هـــ /1227م، أعلنت المدينة عن بيعة المامون إدريس الموحدي القادم من الأندلس بدل الخليفة الشرعي يحي الناصر المقيم بمراكش، فولى عليها أخاه أبا عمران موسى الذي قام بعد ثلاث سنوات من هذا التاريخ بإعلان الثـــورة والاستقلال بالمدينة. وحاصره الخليفة المامون لمدة ثلاثة أشهر دون أن ينجح في دخول المدينة، وبعد انسحاب الخليفة أعلنت ولاءها لابن هود الأندلسي. ولم تدم هذه الوضعية طويلا، إذ ثار سكانها على عامله وسلموا القيادة لأحد تجارها ويدعى أبا العباس أحمد اليانشتي عام 630هـ /1232م . وتميز عهده بتعرض المدينة لحملة صليبية شديدة أضعفت سلطته وإعادتها إلى صف الجماعة تحت خلافة الرشيد الموحدي حتى عام 640 هـــ/1242م عندما استقل بحكمها من جديد واليها أبو علي ابن خلاص البلنسي الذي أجبرته الأحداث على بيعة الحفصيين في تونس، وبعد بضع سنوات سيطر على زمام الأمور بالمدينة أحد مشاهير علمائها وهو أبو القاسم العزفي.
شكلت سبتة في ظل الحكم العزفي إمارة مستقلة وقوية ، ولعبت دور المراقب والمتابع لحركات ملوك قشتالة وأركون لمصلحة الخلفاء الموحدين وصمدت أمام الهجومات الخارجية وخاصة حملة إبن الأحمر سنة 662هـ/1264م وضغوط قشتالة وأراغون بالمفاوضة والمناورة أحيانا والمواجهة

والصدام أحيانا أخرى، بل أكثر من هذا وسعت نفوذها ليمتد على شبه الجزيرة الطنجية. وتنتهي هذه المرحلة بتدخـل أبي يوسف يعقوب المريني وإخضاعها للحكم المريني مع بقائها إقطاعة عزفية تدفع الاتاوة السنوية سنة 672هـ/1274م .ظل بنو العزفي يسيرون المدينة حتى عام 729هـ/1329م ، عندما ضمها أبو الحسن المريني لحكمه المباشر، رغم بعض المشاكل التي عرفتها مثل احتلال ابن الأحمر ما بين 705هـ/1306م و 709هـ/1310م، وثورة ابن أبي طالب العزفي ضد النفوذ المريني سنة 716هـ/1317م.
تحولت سبتة في ظل الحكم المريني إلى قاعدة عسكرية محضة ومعتقلا لذوي الأخطار ودارا للأسطول. وفي عام 786هـ/1385م احتلها ابن الأحمر إلا أن مقامه لم يطل بفعل ثورة شعبية أعادت الحكم المريني. وبعد هذا التاريخ دخلت المدينة مرحلة غموض وضعف وتوالت عليها الأوبئة والكوارث قبل الاحتلال البرتغالي عام 818هـ/1415م.
ظهر جليا أن سبتة كانت مسرحا لأحداث جسام جعلتها باستمرار عرضة للاضطراب دون أن يمنع ذلك من وجود مرحلة استقرار وازدهار جسدها حكم آل العزفي.

1 –2– الوضع الاقتصادي :

تشغل سبتة شبه جزيرة داخلة في البحر الأبيض المتوسط من الغرب نحو الشرق في أقصى شمال المغرب. ويحيط بها الماء من جهاتها الشمالية والشرقية والجنوبية مما يوفر لها ميناءين جيدين لرسو السفن و حمايتها من العواصف والقراصنة وخاصة الجنوبي منهما. وتقع سبتة في عقدة طرق بحرية وبرية، فهي نهاية للطريق المتوسطي وبداية للمسالك المحيطية ومدخل لأفريقيا ومنتهى طرق القوافل الصحراوية.
تتفق المصادر حول كون البادية السبتية فقيرة لذلك تعجز عن ضمان تموين المدينة بالمواد الرئيسية وخاصة الحبوب، فهي – كما يقول ابن الخطيب – «عديمة الحرث فقيرة من الحبوب »[1] و«أريافها هزيلة وكالحة، ولهذا كانت هذه المدينة تشكو دائما شح الحبوب.»[2]. وحتى تتجاوز هذا النقص، لجأت المدينة إلى الاستيراد من باقي مناطق المغرب والأندلس والتخزين لفترات طويلة في مطامير ها التي وصلت أربعين ألف مطمورة بالديار وبعض الحوانيت إضافة إلى مخازن الفندق الكبير وأهراء القصبة و"يمكث الزرع في هذه المطامير الستين سنة والسبعين سنة ولا يلحقه تغير لطيب البقعة واعتدال الهواء وكونها جبلية.»[3] وتوفر الضواحي للمدينة وخاصة بليونش أنواعا مختلفة من الفواكه والبقول والرياحين وتأتيها الأسماك والحيتان من البحر.
ساعد موقع المدينة على جعلها مركزا تجاريا عالميا تدفقت عليه البضائع والتجار من إيطاليا وفرنسا والأندلس والممالك المسيحية الإسبانية وصقيلية وفاس وسجلماسة والسودان والمشرق الإسلامي... وتشكلت صادراتها من المرجان والتين والحبوب والحوامض وقصب السكر والقطن والزرابي وأحزمة الصوف والجلود والشمع... أما وارداتها فتضم القطن والكتان والجوخ ونسيج الكتان وأقمشة الحرير والخمر والأسلحة التمر والحناء والعبيد والتبر... ويستنتج من هذه اللائحة

---

[1] – ا بن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق كمال شبانة، مطبعة فضالة، المحمدية،976 1، ص.146

[2]– ليون الإفريقي، وصف افر يقيا، ترجمة محمد الأ خضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة 2، 1983، ج 1، ص.317

[3] – ابن القاسم الأ نصارى، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، الطبعة 1 ،1973 ، ص. 42

أنها تكتفي بلعب دور الوسيط بالنسبة لكثير من المواد. وقد استقربها عدد من التجار الأوربيين وأنشأوا بها وكالات عديدة.
وصلت الحياة التجارية الأوج خلال هذه المرحلة، إذ وصل عدد الأسواق إلى مائة وأربعة وسبعين (174) سوقا والحوانيت إلى أربـــع وعشرين (24) ألف حانوتا والتربيعات إلى واحد وثلاثين (31) تربيعة[4]. وحقق التجار أرباحا كبيرة وكونوا رساميل ضخمة جعلتهم كما يقول ابن سعيد: "يبتاعون المراكب الكبيرة بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة ولا يخرجون صاحبه إلى نقاص"[5].
كانت للمدينة صناعة نشيطة وفرت أهم الصادرات المحلية، بحيث نجد صناعة النحاس التي اقتربت من جودة الصناعة الدمشقية[6]، وصناعة الزرابي والأحزمة المطرزة والخشب والأسلحة والأطعمة...
نخلص إلى أن مدينة سبتة عرفت انتعاشا وازدهارا اقتصاديا كبيرا بفضل موقعها كمركز تجاري عالمي وملتقى للتجار من كل الآفاق.

1-3-الواقع الاجتماعي:

اختلفت عناصر المجتمع السبتي الوسيطي في تكوينها العرقي بشكل كبير جدا. ويحتل العنصر البربري الصدارة حيث يشكل أغلبية السكان، وينحدر أفراده من قبائل غمارة وأنجرة وزواوة ومجكسة وصنهاجة ومصمودة. واستقرت بالمدينة - منذ الفتح الإسلامي – عناصر عربية ذكر منها البكري صدف[7] وورد الحديث عن لخم وجذام وتميم وقيس والأنصار والأزد... في مصادر أخرى.
وتدفق العنصر الأندلسي على المدينة بشكل دائم وزاد أكثر بفعل حركة الاسترداد إما للإقامة الدائمة أو المؤقتة قبل الانتقال إلى مناطق ومدن أخرى.
ووجدت بالمدينة جالية أوربية من مرسيليا وجنوة والبندقية وبيزا وأراكون وتجمعت في سبع فنادق في الربـــض البراني خارج الأسوار[8]، وعناصر سوداء من أحرار وعبيد. ويفترض وجود عناصر يهودية شأن باقي المدن رغم أن المصادر لا تذكر ذلك.
ويمكن تقسيم المجتمع السبتي اجتماعيا إلى فئتين :
* فئة الخاصة وتضم الحكام والأمراء والشرفاء والأعيان والقضاة وكبار الفقهاء والتجار وتسيطر على الثروة والسلطة والعلم وتتحكم في مصير المدينة وتوجهه لخدمة مصالحها.
* فئة العامة ويكونها الصناع والتجار الصغار والعمال والفلاحين وكل من تبقى من المجتمع، وتمارس الأعمال اليدوية والأنشطة البسيطة وتنفذ مشاريع الخاصة وتساند مخططاتها.
ويلاحظ أن الطرفين عاشا في تعاون وتكافل، فالأغنياء يساعدون الضعفاء والفقراء في فترات الأزمات ومقابل ذلك تساندهم العامة في مخططاتهم السياسية.

---

[4] – نفسه ، ص. 36 –37

[5] – ابن سعيد المغربي، بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق فرانيط خنيس، مطبعة كريماديس، تطوان، 1958، ص. 73 .

[6] – ليون الأفريقي، المصدر السابق، ص. 317

[7] – البكري، ابو عبيد، المغرب في وصف إفريقية المغرب، نشر دي سلاف، مكتبة أمريكا والشرق، باريس، 1961، ص.123

[8] – ابن القاسم الأنصاري، المصدر السابق، ص. 43 .

ويفترض أن سكان المدينة بلغوا عددا مهما ازداد بتوالي الهجرات. وللاقتراب من ذلك يكفي أن نورد بعض الأرقام عن المصالح العامة بالمدينة كما ذكرها ابن القاسم الأنصاري، فللمدينة ألف مسجد وثلاثة وسبعون حماما وأربعون مطمورة[9].
خلاصة الكلام إن المجتمع السبتي كان كبير العدد متعدد الأعراق ومتباين المستوى الاجتماعي دون أن يتسبب ذلك في صدامات حادة إلا نادرا.

4-1 – الواقع الثقافي:

إن موقع سبتة بين المغرب والأندلس قد جعلها قبلة وملجأ لعدد من العلماء والأدباء من العدوتين بغرض الإقامـــة والعيش والتدريـــس وممارسة وظائف هناك أو الدراسة والتحصيل. وتجاوز الإقبال الجيران ليقصدها آخرون من كل شمال إفريقيا وإفريقيا جنوب الصحراء والمشرق العربي[10]. وساهم هذا اللقاء في تلاقح الثقافات واختلاط الآراء وتبادلها وانتعاش الحركة الثقافية بشكل كبير، فتحولت المدينة إلى نقطة إشعاع في الغرب الإسلامي.
واشتهرت سبتة بتعدد وكثرة المكتبات الخاصة والعامة. وذكر ابن القاسم الأنصاري أن عددها بلغ خمسة وستين خزانة، للأكابر منها خمس وأربعون ومنها ثمانية موقفة على طلبة العلم أهمها: خزانة علي الشاري وخزانتا الجامع العتيق التي « لم يشذ منها فن من الفنون ولا نوع من المعارف أصلا مع تعدد مصنفات ذلك الفن وكثرة دواوينه" وخزانتا المدرسة الجديدة وخزانات مسجد القفال ومسجد مقبرة زجلو وجامع الربض[11]. وبهذا الانتشار للخزائن صار من السهل على طالب العلم بسبتة أن يجد الكتاب ويستعمله بأسهل وأبسط السبل.
وكان يوضع على راس الخزانات علماء كبار للعناية بها والزيادة في محتوياتها وتوجيه قرائها. فمثلا كان محمد بن مروان المعافري(ت 817هـ/ 1415 م) على رأس «أحباس سبتة والنظر في كتب الخزانة الشهيرة التي بشرقي صحن الجامع العتيق منها، فانتفع الطلبة مدة نظره بكتبها الطبية بسبب إرشاده و إفادته.»[12] ومحمد بن إبراهيم الغافقي ناظر خزانة مدرسة علي الشاري العتيقة وقاسم بن أحمد بن عمران الحضرمي ناظر خزانة الجامع الأعظم[13].
وتبعا للإقبال على الكتاب ازدهرت صناعة الورق بالمدينة، وعدت من مراكز إنتاجه كما نسب إليها نوع خاص من الورق. وتطورت أيضا الوراقة ونسخ الكتب ونبغ وراقون اشتهروا بجودة الخط وجماله وسرعة النسخ، وكذلك صناعة أدوات النسخ من أقـــلام ومحابر[14]. ومن الوراقين المشاهير أخو محمد الزرعي الجدميوي ومحمد بن إبراهيم الغافقي[15].
إن الملامح التي أبرزناها أعلاه تظهر أن مدينة سبتة كانت تعرف نشاطا ثقافيا كبيرا خلال الفترة المدروسة.

---

[9] – نفسه، ص. 42

[10] – محمد بن عبد العزيز الدباغ، أبو القاسم المسبتي من خلال شرحه لمقصورة حازم، مجلة المناهل، عدد 22، 1982، ص.635 وحسن الوراغلي، شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة، مجلة المناهل، عدد 22، 1982، ص. 565

[11] – ابن القاسم الأنصاري، المصدر السابق، ص. 29-30.

[12] – مجهول، بلغة الأمنية ومقصد اللبيب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكيـــة، الرباط، 1984، ص. 55 و 30 –31 .

[13] – نفسه، ص. 31 –32 و 55

[14] – إسماعيل الخطيب، الحركة العلمية بسبتة خلال القرن 7 هـــ / 13 م، منشورات جمعية البعث الإسلامي، تطوان، ط1، 1986، ص. 97 و 99 و 101

[15] – بلغة الأمنية، ص. 28 و 31 .

توفر سبتة ظروفا ملائمة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا لازدهار الحياة العلمية والإقبال علـى العلم و طلبه وبالتالي نشاط حركة التعلم.

مسألة التعليم بالمدينة :

2-1-المؤسسات التعليمية :

فرض ازدهار الحياة العلمية والتعليمية بمدينة سبتة خلال القرنين 7 و 8 هـ / 13 و 14 م وجود بنية ثقافية قارة مثل العلماء والمؤسسات التعليمية أهم عناصرها. وقد تنوعت المؤسسات وتعددت في هذه المدينة بالرغم من صغرها وسنعمل على الحديث عنها بشكل يبرز دورها وأهميتها.

2-1-1- المدارس :

منذ ظهورها في العالم الإسلامي (ق 4 هـ / 10 م) جمعت المدارس بين مهمتي التدريس والتعليم وإيواء الطلبة الوافدين على المدينة من أحوازها أو مناطق بعيدة. وتميزت المدارس بتخصص دراستها ودروسها ومستواها المرتفع وتفرغ طلبتها للعلم[16]. وأهم مدارس سبتة:

- المدرسة الشارية: أسسها أبو الحسن علي الغافقى الشاري سنة 635 هـ / 1237 م من ماله الخاص. وتعتبر أول مدرسة بنيت بسبتة، بل إن من الباحثين من يعتبرها أول مدرسة في المغرب الأقصى على النمط الشرقي. وكان للمدرسة جناح خاص لإيواء الطلبة ومكتبة عامة ومقبرة حبست على طلبتها[17].

-المدرسة الجديدة: بناها السلطان أبو الحسن المريني. ووصفها ابن القاسم الأنصاري فقال: "المدرسة الجديدة العظيمة البناء المتسعة الزوايا ذات الصنائع العجيبة وأعمدة الرخام وألواحه المتعددة الغالية الثمن"[18].

2 – 1 - 2 – المساجد:

اشتهرت سبتة بكثرة مساجدها (ألف مسجد)، وكانت تقام بأغلبها حلقات العلم والدرس والوعظ، فشكلت مراكز للعلم يقبل عليها الطلبة في غالبية وأوقات النهار لتلقي دروس في الفقه والتفسير والحديث والأصول والتصوف وأشعار العرب والطب والهندسة. ويمكن تقسيم مساجد سبتة حسب أهميتها إلى صنفين، المساجد الجامعة ومساجد الأحياء (الكتاتيب)[19].

---

[16] – ابن تاويت، محمد، سبتة المسلمة، مجلة الناهل، عدد 22، 1982، ص. 131

[17] – إسماعيل الخطيب، المرجع السابق، ص. 70 .

[18] – اختصار الأخبار، ص. 28 .

[19] – إسماعيل الخطيب، المرجع السابق، ص. 56.

المساجد الجامعة:

اختصت المساجد الكبرى بتميز شيوخها وارتفاع مستواهم العلمي وتعمق دروسها وتحول كثير منها إلى مناظرات يتناظر فيها العلماء في حضرة الشيوخ الكبار، وهي أيضا مفتوحة لكل الناس[20]، وأهم المساجد[21]:

+ الجامع العتيق .
+ جامع مقبرة زجلو .
+ جامع القفال .
+ جامع سبتة
+ جامع الريض
+ جامع التبانين
+ جامع القصبة

مساجد الأحياء (الكتاتيب):

اعتبر الكتاب مرحلة أولى للتعليم وفيه يتلقى الصبية المبادئ الأولى للقراءة والكتابة ويحفظون القران ويتعرفون على بعض المتون الفقهية. واشتهر في سبتة مكتبيون كثر نذكر منهم أبا محمد عبد السلام بن مشيش وعبد الرحمن بن أبي الأصبع المعروف بابن صاب رزقه وأحمد بن محمد الشريف الحسني السبتي وأحمد بن محمد الحسني وأبا عبد الله البطيني. ومن مساجد الأحياء المشهورة :

+ مسجد رحبة الوزان .
+ مسجد زقاق الفضل .
+ مسجد زقاق الحرة .
+ مسجد العطار .
+ مسجد القاضي عياض .
+ مسجد عمرون .
+ مسجد زقاق ابن الشراك
+ مسجد الحلفاويين
+ مسجد زقاق ابن عيسى الأعلى
+ مسجد زقاق ابن عيسى الأسفل
+ مسجد الغزالين .
+ مسجد بأسفل زقاق أبي يحي
+ مسجد يوسف بن أبي مسلم
+ مسجد مقبرة السوق
+مسجد القراقين
+مسجد المحمل

---

[20] – ابن القاسم، المصدر السابق، ص. 28 .

[21] – يمكن العودة إلى كتابي " اختصار الأخبار" و " بلغة الأمنية " للتعرف على هذه المساجد.

+ مسجد ابن الخنشية
+ مسجد ابن علا قومه
+ مسجد زقاق السلال
+ مسجد ابن خلف الله بزقاق الخير .

2-1-3- الربط و الزوايا:

اعتبرت الرباطات والزوايا إضافة إلى دورها في العبادة والاستعداد لرد العدو مراكز للعلم تدرس بها فروع علميـة عديدة وخاصة العلوم الشرعية[22]. وكان بالمدينة حسب ابن القاسم الأنصاري سبع وأربعون زاوية ورابطة كلها محادية للبحـر وأضخمها رابطة الصيد والزاوية الكبرى التي بناها السلطـان المريني أبو عنان[23].
ومن خلال هذا الاستعراض يلاحظ مدى تعدد وكثرة مراكز التلقي والتحصيل بالمدينة وهو ما سيساعد على ازدهار الحياة التعليمية ويوفر للطلبة فرصا للتعلم أكثر والاختيار بين الأساتذة والحلقات.

2- 2 - وضعية المدرسين:

يحتل المدرس مكانة خطيرة ومهمة ضمن نظام التعليم التقليدي باعتباره المصدر الوحيد للمعرفة ومنه يستمد الطالب شرعية علمه ولا يمكنه الاستشهاد إلا بما تلقى عن أستاذه حتى ولو كان يتعلق بكتاب لشخص ثالث. فالمجتمع الوسيطي لا يعترف بشيء غير المعرفة المتلقاة عن الأساتذة ومن أفواه الرجال. ومن هنا تنبع أهمية ذكر أسماء الأساتذة في فهارس العلماء. وقد يـبرر هذا الأمر بقلة الكتب و ضعف تداولها . إلا أن الأمر أعمق من ذلك كما يؤكد ابن خلدون عند ما يقول: "إلا أن حصول الملكات عـن المثابرة والتلقين أشد استحكاما وأقوم رسوخا فعلا قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها"[24].
و يفاجئنا صاحب "بلغة الأمنية" بتمييز غريب في تصنيفه للأساتذة، حيث ميز بين المدرس الأستاذ لكن تفحص الكتاب لا يعطينا مبررات هذا التصنيف مما يزيد من حيرتنا ويفتح أمامنا باب الاجتهاد، وحاول محقق الكتاب أن يحل الإشكال عند ما قال: "لا ينعت بالأستاذ إلا من كان مدرسا بمدرسة باستثناء واحد، بينما يطلق كلمة مدرس على من يعلم بمسجد أو مساجد وتميل نفسي إلى أن يكون ما يعنيه بالأستاذ هو المدرس الراتب في مدرسة في الغالب، وأن يكون ما يعنيه بالمدرس المعلم في المساجد تطوعا من غير أن يكون له أجر راتـب وجراية مقررة"[25].
وحتى نعطي صورة قريبة للمدرس فقد ارتأينا أن ندخل في بعض تفاصيل حياه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بالرغم من شح المصادر.

---

[22] – إسماعيل الخطيب، المرجع السابق، ص. 56

[23] – اختصار الأخبار، ص. 30-32

[24] – ابن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، الطبعة 7، 1989، ص. 540

[25] – بلغة الأمنية، ص. 16

2-2-1 - ثقافة المدرسين:

إن العودة إلى تراجم العلماء والأساتذة تمكننا من معرفة بعض مؤهلاتهم العلمية وجزء من ثقافتهم الخاصة. وهكذا نجد صفة تتكرر عند معظم الشيوخ وتــتمثل في المشاركة في علوم شتى. فهذا صاحب " البلغة " يقول عن محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري (ت 750 هـ / 1350 م): "كان يقرئ الطلبة في المجلس الواحد دولا في علوم شتى"[26]، أما قاسم بن أبي حجة فهو فقيه محدث صوفي فرضي حسابي مشارك في أصول الدين والنحو والتاريخ ماهر في علم التعديل كاتب موثق حسن الخط[27]. ومن خلال النموذجين أعلاه نلاحظ موسوعية الأستاذ ومشاركته العلمية الواسعة وتكاد هذه الصفة تعم كل الأساتذة دون أن يمنـــــــع ذلك من وجود أساتذة متخصصين مثل: قاسم بن يوسف التجيبي السبتي الذي هو فقط " محدث ناقد للأسانيد"[28].

ويتميز معظم المدرسين بصفة ثانية يمثلها الإبداع الأدبي سواء نثرا أو شعرا. فمحمد بن هانئ اللخمي (ت 733هـ/ 1333م) "عالم مصنف شاعر بارع الخـــــط."[29]، ومحمد بن عبد المنعم الصنهاجي "يقول الشعر"[30]، ومحمد بن هارون الأموي "بارع مصنف شاعر"[31].

وتمدنا التراجم بمعلومات حول قوة ذاكرة هؤلاء و قدرتهم على الحفظ و الصرامة في نقل العلوم وشدة التحري. فمثلا كان السلطان أبو الحسن المريني يعترف لمحمد بن عبد المنعم بمكانة عالية في الحفظ[32] وكان قاسم بن يوسف التجيبي السبتي "ناقد الأسانيد"[33]. وبلغ قاسم بن أحمد بن عمران الحضرمي (ت 750 هـ / 1350 م) من قوة الحفظ والصرامة في نقل الحديث ما جعل صاحب "البلغة" يقول عنه بأنه "لا نظير له في المغرب"[34]. أما محمد بن محمد بن المجراد الفنزاري فهو "محدث حافظ راوية له معرفة بالرجال والمغازي والسير"[35]. ولا تكاد ترجمة لعالم سبتي تخلو من صفة براعة الخط، مما يظهر المكانة التي يحظى بها النسخ والكتابة في هذه المدينة، وبلغت العناية بها الدرجة التي تجعل أحد الأساتذة يرفض كل طالب لا يتقن الخط[36].

يظهر من عرض هذه المؤهلات الثقافية التي يتمتع بها المدرسون أنها تمثل ضوابط صعبة ولا تسهل الوصول إلى هذا المنصب، لذلك يقتصر التدريس على فئة محدودة من سكان المدينة أو الوافدين عليها.

---

[26] – نفسه، ص. 24

[27] – نفسه، ص. 44.

[28] – نفسه، ص. 28.

[29] – نفسه، ص.23

[30] – نفسه، ص. 24

[31] – نفسه، ص. 26

[32] – نفسه، ص. 24

[33] – نفسه، ص. 28

[34] – نفسه، ص. 31

[35] – نفسه، ص. 39

[36] – نفسه، ص. 34

2-2-2- الوضعية الاجتماعية للأساتذة:

الحق إن معلوماتنا عن هذا الجانب من حياة المدرسين قليلة وضعيفة ولا تتجاوز بعض الإشارات المتفرقة. إلا أن المعطيات المتوفرة تتجه نحو إثبات انتماء معظم المدرسين إلى أسر عريقة ماديا وسياسيا وعلميا ونسبا.
وجدنا عددا من العلماء ينتمون إلى بيت بني العزفي، بيت الشرف والعلم والرياسة والمال وحاكم سبتة لمدة اقتربت من القرن صاحب الآثار السنية في المدينة، ومن أشهر أبنائه أبو العباس وابنه أبو القاسم العزفي. وإلى جانبهم علماء من أسر لا تقل عن بيت آل العزفي في النبل والغنى. فهذا العالم ابن نبيل الحسابي يستقبل في بيته محمد الآبلي عند مرافقته السلطان أبي الحسن المريني أثناء زيارته للمدينة[37]، ومعروف أن هذه الشخصيات لا تنزل إلا في بيوت جاه وغنى. وكان قاسم بن أبي حجة "يتقدم في المحافل"[38]. أما الطبيبة عائشة بنت محمد بن الجيار "فهي معروفة القدر لمكان بيتها"[39].
تبين الأمثلة السالفة أن الأساتذة يدخلون في مصاف السر الغنية والعريقة النسب، وهو ما يؤكده حسن الوراكلى بقوله: "أغلب من عرفنا من شيوخ التجيبي كانوا حتى قبل أن يعلي العلم منزلتهم معدودين من ذوي المكانة المرموقة في مجتمع سبتة"[40] دون أن يفوته أن يذكر أن بعض المعلمين كانوا من أسر مغمورة معتمدا على أسمائهم المتواضعة مثل: ابن الخضار[41]، لكن الحذر واجب عند التعامل مع هذه الأسماء والألقاب فقد تطلق على شخص بالرغم من مكانته الاجتماعية السامية ويكون قد ورثه من جد بعيد كان وراء تكوين هذه الأسرة.
يبقى علينا أن نقول كلمة عن الأصول الجغرافية لهؤلاء المدرسين. فمن خلال كتاب "بلغة الأمنية" واعتمادا على التراجم التي ذكر أصول أصحابها الجغرافية نجد أنهم ينقسمون كما يلي:

- ثلاثة و عشرون شخصا من سبتة.
- بضعة أشخاص من مرسية والجزيرة الخضراء ومالقة (الأندلس).
- بعضهم من مدن فاس ومراكش وسلا.

وهذا الجرد يبين أن معظم المدرسين من أبناء المدينة، فهي تكاد تحقق اكتفاءها من المدرسين، بل إن السلاطين في فاس يستدعون أساتذة العربية منها، كما يفعلون مع باقي المدن المغربية.

2-2-3 – الوضع المادي للأساتذة:

لم تكن وظيفة التدريس بالنسبة لأغلبية المدرسين والعلماء إن لم يكن كلهم مصدر رزقهم، ويستثنى منهم مدرسو المدارس. ولذلك يشتغلون بوظائف أخرى لضمان معيشتهم نحصرها فيما يلي:

---

[37] – نفسه، ص. 34
[38] – نفسه، ص. 44
[39] – نفسه، ص. 55
[40] – حسن الوراكلي، المرجع السابق، ص. 580
[41] – حسن الوراكلي، المرجع السابق، ص. 582

*** الترسيم في التدريس في مدرسة أو مسجد جامع:**

صادفنا عددا من المدرسين الذين ترسموا في المدارس وكانت لهم رواتب وأجور قارة من موارد المدرسة أو الجامع التي تدرها أوقافهما، وتوفروا على كراسي معروفة ومضبوطة. وانطلاقا من كتاب « بلغة الأمنية» كونا لائحة بأسماء أساتذة المدرسة الجديدة فجاءت كالتالي:

+ محمد بن هارون الأموي (ت 750هـ/1350م)
+ محمد بن إبراهيم الغافقي (ت 750هـ)
+ محمد بن عامر الأنصاري (ت 765 هـ/ 1364م)
+ عبد الله بن محمد الزكندري (ت 768 هـ/1367م)
+ عبد الله بن أحمد بن مسلم القصري (ت 773 هـ/ 1372 م)
+ محمد الجناتي (ت 778 هـ/1377 م)
+ أحمد النامسي (ت 792 هـ/1391م)
+ محمد بن محمد ابن السكاك العياضي (ت 800 هـ/1399م)
+ قاسم ابن أبي حجة الأنصاري (ت 802 هـ/ 1401 م)
+ مسعود الزواوي (ت 803 هـ/ 1402م)
+ أبو بكر الشريف الحسني الإدرسي (ت 809 هـ/ 1407م)

*** الخطابة:**

هناك عدد من الأساتذة الذين ترسموا في الخطابة في مساجد جامعة في المدينة. ومنهم محمد بن حريث العبدري بجامع سبتة (ت750هـ/1350م) وعلي بن وشاش بنفس الجامع ومحمد بن عامر الأنصاري بجامع الربض الأسفل (ت 765 هـ/ 1364م) وعبد الله ابن أحمد بن مسلم القصري خطيب القصبة (ت773هـ/1372م) ومحمد العباسي الخطيب بجامع أفراك[42].

*** القضاء:**

شغل عدد كبير من العلماء الكبار القضاء في سبتة وأضافوا إليه التدريس. ومن هؤلاء نذكر: عبد الله الزكندري ومحمد الجناتي (ت 778 هـ/1377 م) وعبد الله بن مسلم الأنصاري القصري(ت 773 هـ/1372م) ومسعود الزواوي(ت 783هـ/1382م) وأحمد بن القاسم القباب ومحمد بن محمد ابن السكاك العياضي(ت 800هـ/1398 م) وأبو بكر الشريف الحسني[43].

*** التوثيق:**

ويقصد بها وظيفة العدول القائمة على كتابة عقود مختلف المعاملات والمناكح وغيرها. ومن الذين اشتغلوا بها قاسم بن أبي حجة الكاتب الموثق[44] ومحمد الأنجري صاحب حانوت بالموثقين[45] ومحمد بن زيد السمار الموثق بالسماط[46] وتدر هذه المهنة على أصحابها عائدات مهمة.

***المحافظة على الخزائن العامة:**

وهي من الوظائف التي توكل للعلماء كمحمد بن إبراهيم الغافقي ناظر خزانة الكتب في المدرسة القديمة وقاسم بن أحمد بن عمران الحضرمي ناظر خزانة الجامع الأعظم[47].

---

[42] – بلغة الأمنية، ص، 29 و 35 و 38 و 43.

[43] – بلغة الأمنية، ص، 29 و 35 و 38 و 43.

[44] – نفسه، ص. 44

[45] – نفسه، ص. 46

[46] – نفسه، ص. 32.

[47] – بلغة الأمنية، ص. 33 و 36 و 38 و 41 و 47 و 48 و 49.

***وظائف أخرى:**

مارس العلماء والأساتذة مهنا أخرى مثل الإمامة في مساجد الأحياء والتدريس فيها لصالح الأطفال كما يظهر من كلام «البلغة»: «كان طلبته [محمد بن علي بن هانئ اللخمي] إذا فرغ أحدهم من الفن الذي اعتاد قراءته عليه يقوم منصرفا إلى مسجده فيدرس به العلم »[48]. ومارس بعضهم مهنا متواضعة مثل تسمير الدواب بالنسبة لأبي زيد السمار[49].

وكان للعلماء أنشطة متعددة يمارسونها مثل الرماية لأن "الرمي طبع لأهل سبتة طبعوا عليه فلا تلقى منهم شريفا ولا مشـــروفا ولا كبيرا ولا صغيرا إلا وله بصر بالرمي وتقدم فيه"[50]، ولعب الشطرنج كما كان شأن عبد المنعم الصنهاجي الحميري[51].

2-2-4- زي الأساتذة و الطلبة:

وردت في "البلغة" العبارة التالية: "كان ابن النكي لا يتحلى بحلية الطلبة من الارتداء وما في معناه"[52] ويفهم من هذا الكلام أن الأساتذة يحملون زيا يميزهم عن عامة الناس. ويعتبر الهندام والهيئة الحسنة من الأمور التي تزيد العالم والمدرس هيبة ووقارا في أعين الطلبة والناس عامة. ولهذا نجد أن من بين الأوصاف التي يوردها نفس المؤلف في حق مترجميه "حسن الذات والهيئة والملبس»[53]. و"حسن الهيئة ظريف الملبس"[54]. ونجهل كل شيء عن مكونات هذا الزي إلا أننا قد نقارنه بما أورده عبد الهادي التازي عند وصفه لزي علماء القرويين حيث يذكر أن المغاربة اختاروا اللون الأبيض لملابس علمائهم وتتكون من البرنس والحايك والعمامة[55]. لكن هذا اللباس لم يكن إلزاميا إذ وجد علماء رفضوه مثل ابن النكي الذي كان يقول عنه: "أي شيء يزيد هذا صاحبه أو فاعله؟ يعني إذا لم يكن لديه معرفة"[56]. وكيفما كان الأمر فالهندام والعناية به أمر يحظى بتقدير كبير في العالم الإسلامي حتى إن السلاطين والحكام يجعلون هداياهم للعلماء متضمنة لبذلة سنوية.

2-2-5- علاقة الأساتذة بالطلبة:

هاجم ابن خلدون التعليم التقليدي لاعتماده على القسوة والضرب مما يقتل في المتعلم حب الاستطلاع والذكاء ويدفعه إلى الكذب والغش والخنوع والمكر والخديعة[57]. ولا نعتقد أن مثل هذا العيب بعيد عن نظام التعليم السبتي خاصة في مراحله الأولية حيث التعامل مع صغار الطلبة والتلاميذ في الكتاتيب ومساجد الأحياء. إلا أن علاقة المدرسين بطلبتهم تتخذ صورا عديدة تختلف باختلاف الطالب والأستاذ.

---

[48] – نفسه، ص. 23

[49] – نفسه، ص. 32

[50] – ابن القاسم الأنصاري، المصدر السابق، ص. 47

[51] – بلغة الأمنية، ص. 26.

[52] – نفسه، ص. 34

[53] – نفسه، ص. 32

[54] – نفسه.

[55] – عبد الهادي التازي، جامع القرويين، المسجد والجامعة بمدينة فاس، المجلد 1، دار الكتاب اللبناني، الطبعة 1، 1972، ص. 126

[56] – بلغة، ص. 34

[57] – ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 540

تميزت علاقة الأساتذة بالمتعلمين بتغيرات صارخة، حيث نجد من الأساتذة من يعطف عليهم ويتقرب منهم ويبذل كل جهده لمساعدتهم. فهذا قاسم بن أبي حجة الأنصاري "كان متوددا للطلبة مباسطا لهم"[58]. واشتهر محمد بن محمد ابن السكاك العياضي بحبه للطلبة[59] ونفس الخصلة يحملها أبو بكر الشريف الحسني الإدريسي الذي كان "معظما لطلاب العلم بمنح جاهه وبذل معروفه"[60]، ووجدناه يقف عند المتخلفين ويساعدهم للالتحاق بركب الطلبة النجباء[61].

ومقابل البر والإحسان وجدنا من يتشدد في معاملة الطلبة ويضع شروطا للالتحاق بحلقات درسه فمثلا كان ابن النكي المدرس بمسجد الغزالين يقول: "أنا لا يقرأ علي ولا يحضر مجلسي إلا من يكون شاعرا خطاطا"[62]، وهذه كما يرجح حالة واحدة تجد لها أشباها في المدينة خلال فترة الدراسة.

إن اختلاف مستويات الأسر المادية والإجماعية ينعكس على التدريس في المدينة، ووجدنا عددا من الأساتذة الذين يختصون في تدريس أبناء الأثرياء. فمحمد بن الأصفر "يقرأ عليه أبناء أكابرها"[63]، ونفس الشي بالنسبة لمحمد البطيني الذي كان مقصد الأمراء والأكابر لتدريس أبنائهم[64]. وهذا يدفعنا إلى استنتاج وجود نوع من التراتبية في التعليم السبتي واختلاف المواد المدرسة لأبناء الأغنياء عن تلك المقدمة لعامة الناس وكذلك طرق تقديمها و مدة تقديمها. ولم نجد ما يشير إلى اتخاذ بعض الأسر مربين لأبنائهم داخل دورها، لكن هذا لا يعني عدم وجودها خاصة وأن ابن القاسم الأنصاري عند حديثه عن مساجد المدينة ذكر أن معظمها في دور الأكابر[65]. وربما؛ قام هذا دليلا على تخصيص هذه الأسر مساجدها إضافة إلى العبادة لتعليم أبنائها.

يشارك الطلبة والأساتذة في حياة المدينة الاجتماعية والسياسية بالمساهمة في الحفلات خاصة ليلة المولد النبوي. وقد ترك ابن عذاري وصفا مقتضبا لذلك جاء فيه: "ومن مآثره [أبو القاسم العزفي] العظام قيامه بمولد النبي عليه السلام من هذا العام فيطعم فيه أهل بلده بألوان الطعام، ويؤثر على أولادهم ليلة يوم المولد السعيد بالصرف الجديد من جملة الإحسان عليهم والإنعام، وذلك لأجل ما يطلقونه المحاضر والصنائع والحوانيت يمشون في الأزقة يصلون على النبي عليه السلام بالفرح والسرور والإطعام للخاص والعام جار ذلك على الدوام في كل عام من الأعوام"[66]. وتحدثنا المصادر عن تقليد يظهر مشاركة الطلبة في الحياة السياسية ويتعلق باستخدامهم كوسيلة لاستعطاف السلطان أو الخليفة وتجنب عقابه. ويصف ابن أبي زرع ذلك بقوله: "وقدموا بين أيديهم –أهل مكناس– الشيخ الصالح أبا على منصور ابن حرزوز والصبيان من المكاتيب بألواح على رؤوسهم والمصاحيف بأيديهم فعفا عنهم"[67].

أخيرا نصل إلى تلك النتيجة التي ينتظرها كل طالب من تعليمه، وهي الاعتراف بتحصيله وبتفوقه من أستاذه وهو ما يعرف بالإجازة، وهي "بمثابة تصريح بالصلاحية للمهنة العلمية أو الوظيفية

---

[58] – بلغة، ص. 45

[59] – نفسه، ص. 49

[60] – نفسه، ص. 50

[61] – نفسه، ص. 49. يقول في ذلك " يقرب العبارات إلى أفهام المبتدئين من الطلبة".

[62] – نفسه، ص. 34

[63] – نفسه، ص. 41

[64] – نفسه، ص. 42

[65] – اختصار الأخبار، ص. 35

[66] – ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد بن تاويت وآخرين، دار الثقافة، البيضاء، الطبعة1، 1985، ص. 398

[67] – ابن أبي زرع الأنيس المطرب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، 1972، ص. 257

كالتدريس والفتيا والقضاء"[68]. وليست الإجازة تصريحا عاما فقط، بل إعلان من الشيخ عن كون تلميذه قد أتقن الكتب والعلوم التي درسها وأخذها عنه فمثلا أجاز قاسم بن محمد بن عمران الحضرمي علي بن الحسن الجذامي المالقي الشهير بالنباهي "جميع مروياته وأخذ عنه تأليفه المرسوم بالشافي في اختصار التيسير والكافي"[69]. وكان مرور العلماء الكبار بالمدينة مناسبة لتوزيع الإجازات على العلماء والطلبة. فمثلا قام ابن الخطيب في إحدى جولاته بإجازة محمد بن بيبش العبدري[70]. وتحظى الإجازة بمكانة كبيرة عند العلماء ولذلك يؤكدون على ذكرها في فهارسهم.

2-3- المواد المدرسة:

إن تصفح المصادر الخاصة بالموضوع خاصة الفهارس وكتب التراجم، يكشف تنوعا وتعددا في المواد المدرسة. ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام أساسية تتفرع عنها فروع ثانوية.

2-3-1- العلوم الشرعية:

وتشمل القراءات والتفسير الحديث والفقه والأصول، وسنعرض لكل واحدة على حدة.

* **القراءات**:

سنعمل على التعريف بواقع تدريسها بجرد أهم الكتب المدرسة و بعض أساتذتها وأماكن تدريسها.

وأهم الكتب:

1- الكتاب الكافي في القراءات السبع عن القراء السبعة أليف الإمام أبي عبد الله محمد بن شريح الإشبيلي.
2- كتاب التيسير وحفظ مذاهب القراء السبعة في القراءات لأبي عمرو عثمان الصيرفي.
3- كتاب المفردات لأبي الحسين الشريح.
4- أرجوزة للمقرئ أبي الحسين علي بن عبد الغني الفهري القروي الحصري (209 بيتا).
5- كتاب المفردات في القراءات الثماني لأبي عمرو المقرئ.
6- أرجوزة حرز الأماني ووجه التهاني لأبي القاسم بن فره الرعيني الشطيبي.
7- المقنع في رسم المصاحف لأبي عمرو الداني.
8- نهاية الاتفاق في تجويد ألفاظ القرآن لأبي حسين شريح بن محمد الرعيني.
9- كتاب التقريب و الحرش لأبي الأصبغ عيسى بن فتوح بن المرابط الهاشمي.
10- الجامع في القراءات لأبي القاسم عبد الرحمن الطرسوسي.
11- المصباح الزاهر في القراءات العشر البواهر لأبي الكرم مبارك بن الحسن الشهر زوري.
12- تحفة التالي في أشرف المعالي لأبي محمد عبد الواحد الباهلي.
13- عمدة النحرير في الإدغام الكبير لأبي محمد عبد الواحد الباهلي.

---

[68] – عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص. 125.

[69] – بلغة، ص.32.

[70] – نفسه، ص.35.

14- كتاب الدرر اللوامع في حرف نافع[71].

ومن أشهر الأساتذة المتخصصين في تدريس هذه المادة نذكر أبا زكرياء يحي بن معطي الزواوي وعبد الله بن أبي الربيع ويحي بن أبي محمد بن خلف الهوزيني ومحمد بن علي بن محمد بن يحي الغافقى(ت 624هـ / 1227م) ومحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصاري أبو عبد الله بن جوبر(ت 655هـ/1257م) وعتيق بن محمد بن علي الغساني المعروف بابن بريل(ت670هـ/1272م) ومحمد بن إبراهيم بن يوسف بن غصن الأنصاري القصري (ت 723هـ / 1323م) وعلي بن محمد ابن الخضار أبو الحسن التلمساني (ت 677 هـ/ 1279م) وابن رشيد محمد بن عمر وأحمد الشعار وأبا بكر الشريف الحسني السبتي (ت 809هـ/ 1407م). وكانت كراسي تدريسها موزعة بين المدرسة الجديدة ومسجد مقبرة زجلو ومسجد القفال والمدرسة العتيقة والمسجد الأعظم....

*** التفسير:**

عرف هذا الفرع ازدهارا كبيرا بالمغرب الأقصى منذ عهد ابن تومرت الموحدي[72]. واستمرت تلك النهضة حتى بعد سقوط الموحدين في معظم حواضر المغرب. وكان السبتيون يتداولون كتبا عديدة نذكر منها:

1- تفسير الطبري.
2- تفسير عبد الرزاق بن همام.
3- تفسير يحي بن سلام.
4- تفسير أبي بكر النقاش.
5- تفسير أبي عبد الرحمن بن شعيب النسائي.
6- تفسير الماوردي.
7- تفسير أبي إسحاق التغلبي.
8- تفسير شرف الدين الطيبي.

وأشرف على تدريس المادة علماء أمثال عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الأوسي المعروف بالقصري وأبي العباس أحمد بن يوسف بن فرتون ومحمد بن عبد الله بن سليمان الأزدي وعبد الله بن أبي الربيع ومحمد بن عبد الرحيم بن الطيب القيسي بن زرقون ومحمد بن عمر بن رشيد. وأغلب هؤلاء يتوزعون على مساجد المدينة الجامعة وكذلك مدرستيها.

*** أصول الفقه:**

انتشر هذا الفرع بالمغرب مع الموحدين بفضل عناية ابن تومرت به وبعده أتباعه وتلامذته[73]. ومن مدرسي المادة نذكر قاسم بن عبد الله بن الشاط والحسين بن يوسف بن يحي بن أحمد الحسيـــني (ت753هـ/ 1353م) وزكرياء بن يحي بن يوسف أبو يحي الشريف الحسني عبد الله بن علي بن شاري (ت 647 هـ / 1249م) ويحي الدكالي ومحمد بن محمد بن السكاك العياضي(ت 800 هـ/ 1399م). وتدوولت كتب منها كتابي "الأصلي" و"الاصطلاح" لابن الحاجب و"المستصفى" للغزالي.

*** الفقه:**

---

[71] - اعتمدنا في إيراد هذه المصادر والتي ستأتي بعدها في باقي الفروع على كتاب "الحركة العلمية في سبتة خلال القرن السابع الهجري" وإضافات تتم الإشارة إليها كما هو الشأن هنا، بلغة الأمنية، ص.50.

[72] - إسماعيل الخطيب، المرجع السابق، ص.127.

[73] - نفسه، ص.243.

مادة يكثر الإقبال عليها في كل أنحاء العالم الإسلامي باعتبارها وسيلة لكسب الرزق والجاه بتولي مناصب مثل القضاء والتوثيق ومناصب أخرى، وكان السبتيون يتداولون كتبا نذكر منها:

1- مدونة أبي سعيد عبد السلام سحنون
2- رسالة أبي زيد القيرواني
3- التهذيب للبرادعي
4- مختصر بن عبيد الطليطلي
5- التفريع لابن الجلاب المصري المالكي
6- المقدمات في الفقه لابن رشد محمد أبو الوليد القرطبي
7- الكافي في الفقه لابن عبد البر النمري
8- كتاب الزكاة لأبي بكر محمد بن عبد الله بن الجد الفهري (ت 586 هـ / 1290م)
9- كتاب النظر في أحكام النظر لابن القطان الفاسي
10- كتاب الجواهر الثمينة لأبي محمد عبد الله بن شاش

ومن شيوخ الفقه المشاهير نورد محمد بن علي بن معلى القيسي السبتي (ت 609 هـ / 1212م) وعلي بن عبد الله بن قطران (ت661 هـ/ 1263م) وأحمد بن علي بن أحمد بن ثابت الأنصاري (ت666 هـ / 1268م) وأحمد بن أبي الحسن نبيل الرومي (ت 669 هـ / 1271م) ومحمد بن عمر بن الدراج (ت 693 هـ/ 1294م) ومحمد بن عبد المهيمن الحضري(ت 711 هـ / 1311م) وعلي الأنجري (ت 714 هـ / 1314 م) وقاسم بن عبد الله بن الشاط (ت 723 هـ / 1323م) وأبا عبد الله بن زيد السمار(ت 750 هـ / 1350م) وأبا القاسم بن عبد الله الأنصاري ومحمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري (ت 750 هـ / 1350م) وأحمد بن القاسم القباب (ت 773 هـ/ 1372م) ومحمد بن محمد بن السكاك العياضي وأبا بكر الشريف الحسني الإدريسي.

ويلاحظ أن تدريس الفقه ينتشر بكل مؤسسات المدينة بالرغم من اختلاف مستوى المادة المقدمة كما أنه يركز على كتب الفروع دون الأصول وهي عادة موروثة عن العهود السابقة خاصة العهد ين الأمـــوي الأندلســـي والمرابطي وقد قاومت حرب الموحدين الشرسة عليها قبل أن تنعم بدعم المرينيين وتشجيعهم.

*** علوم الحديث:**

انتشرت دراسته في مؤسسات المدينة واعتمدت على منابعه الأولى وأمهاته إضافة إلى بعض الفروع. ومن أهم المؤلفات المدرسة:

1- كتب الصحاح: موطأ مالك وصحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود والترميذي والنسائي وابن ماجة
2- كتاب الشهاب للقضاعي
3- المعبر الفصيح لشرح البخاري لابن التين أبي عمرو الصفاقسي
4- معرفة أنواع الحديث لابن الصلاح
5- كتاب الالماع إلى معرفة أصول الرواية و تقييد السماع للقاضي عياض
6- كتاب الاعتبار في ناسخ الحديث و منسوخه للإمام زين الذين أبي بكر محمد بن موسى
7- الأحكام في الحديث لأبي محمد بن عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي
8- بيان الوهم و الإيهام الواقعين في كتاب الأحكام لابن القطان
9- أربعون حديثا في الأذكار مما يستعمل بالعشي والإبكار لأبي عمروعثمان الزبيدي

واشتهر بتدريس الحديث عدد كبير من العلماء نقتصر على ذكر بعضهم بداية بأبي العباس العزفي (ت 637هـ / 1239م) ومحمد بن عمر بن محمد بن رشيد (ت 712 هت / 1321 م) ومحمد بن أحمد بن زبير (ت 616 هـ / 1219 م) وعياض بن محمـد بن عياض(ت630 هـ/ 1232م) وابــن الجنان أحمــد الأنصاري (ت 650 هـ / 1252 م) والحسين بن طاهر بن رافع الحسيني(ت702هـ/ 1303م) وعبد المهيمن الحضرمي (ت 749 هـ / 1349 م) وعبد الله بن محمد الزكندري(ت 762 هـ / 1361 م) وأحمد الشعار.

وبلغ اهتمام الطلبة بالحديث أن كانوا يحفظون بعض الكتب عن ظهر قلب مثل كتاب الشهاب لأبي عبد الله القضاعي، وحظى كتاب صحيح البخاري بالاهتمام عكس ما هو سائد في المغرب حيث الاهتمام موجه إلى صحيح مسلم[74]. ونال كتاب الالماع لعياض مكانة كبيرة جعلته يقف منافسا لكتب المشارقة[75].

2-3-2- اللغة و الآداب:

***اللغة:**

اشتهرت سبتة من بين مدن المغرب خلال فترة الدراسة بمكانة عالية في علوم اللغة جعلت ابن الخطيب يسمها بصفة "بصرة علوم اللسان"[76]. وكان سلاطين بني مرين يستدعون أساتذة اللغة منها[77]. ومن الكتب المدرسة:

1- كتاب سيبويه
2- الإيضاح للفارسي أبو علي حسن بن أحمد النحوي
3- الجمل في النحو للزجاجي أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق
4- الملخص في ضبط قوانين العربية لابن الربيع
5- ألفية ابن مالك

ودرس اللغة أساتذة كبار أمثال الشيخ عبد الله بن أبي الربيع ومالك بن المرحل وأبي القاسم خلف الغافقي وأبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر التلمساني الأنصاري وأبي عبد الله محمد بن أحمد الصنهاجي.

*** الفنون الأدبية:**

تعددت أغراض الشعر والنثر واستجابت لكل متطلبات الحياة، وهكذا نسجل أغراضا شعرية مثل المديح والدعوة إلى الجهـــاد والزهد والوعظ والرثاء والغزل والوصف، وتضمن النثر الخطابة والرسائل الإخوانية والديوانية والمناظرات والمقامات[78]، ويلاحظ الوراكلي أن الكتب المشرقية تهيمن على المواد المدرسة إضافة إلى تدريس بعض الشيوخ لإنتاجاتهم الأدبية والشعرية والنثرية[79].

---

[74] – حسن الوراكلي، شيوخ العلم وكتب الدرس بسبتة ، منشورات جمعية البعث الإسلامي، تطوان، 1984، ص.55.

[75] – نفسه.

[76] – ورد ضمن ملحق " كتاب اختصار الأخبار" لابن القاسم الأنصاري، ص.70.

[77] – ابن تاويت، تاريخ سبتة، ص.155.

[78] – إسماعيل الخطيب، المرجع السابق، ص. 292 .

[79] – الوراكلي، شيوخ العلم، ص.69.

2-3-3- علوم أخرى:

*** التصوف:**

إن موقع المدينة كثغر إسلامي جعلها مقصد المجاهدين والمرابطين، فنشط التصوف بها منذ وقت مبكر ويحدد ابن القاسم عدد الربط والزوايا بها في سبع وأربعين مؤسسة[80]. ودون شك؛ ساعد هذا الوجود في نشاط تدريس التصوف. ومن الكتب المتداولة :

1-الرسالة القشيرية
2- شعب الإيمان لعبد الجليل القصيري
3- مفاوضة القلب العليل و منابذة الأمل الطويل في معارضة ملتقى السبيل لأبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي
4- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي
5- بداية الهداية و مناهج العابدين للغزالي
6- رعاية المحاسبي

*** السيرة النبوية:**

اهتم السبتيون بها كثيرا وألفوا بسخاء في موضوعها، بل إن أبا القاسم العزفي كان وراء ابتداع الاحتفال بالمولد النبوي بالمغرب[81]، بعد وضع تأليفه الموسوم ب "الدر المنظم في مولد النبي المعظم"[82]. ودرست كتب بالمدينة منها:

1- سيرة ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام
2- كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض السبتي
3- رائع الدرر ورائق الزهر في أخبار خير البشر لأبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي
4- الغرة المختصرة من كتاب العمدة في نسب النبي (صلعم) لأبي عبد الله محمد الأنصاري التلمساني
5- شفاء الصدور لأبي الربيع سليمان بن سبع العجيسي
6- الدر المنظم في مولد النبي المعظم لأبي القاسم العزفي

يلاحظ أن هذه الكب في مجملها مغربية وسبتية[83]

*** التاريخ:**

عرف تدريس التاريخ ازدهارا كبيرا بالمدينة حيث "كان لأعلام سبتة في القرن السابع اهتمام بالتاريخ دراسة وتصنيفا وقلما نجد عالما أو أديبا إلا وله اهتمام بهذا الفن"[84]. ومن المهتمين بالتاريخ محمد بن علي الغافقي الشاري وإبراهيم بن أحمد الكمـــــاد وعلي بن محمد الشاري الغافقي وعبد الله بن محمد العزفي وعبد المهيمن الحضرمي ومحمد الزرعي الجدميوي.

*** علوم الرياضيات:**

عرفت هذه العلوم ازدهارا بالمدينة وشملت الحساب والجبر والهندسة. وتعددت حلقاتها بالمدينة. وقد ذكر صاحب «البلغة » عددا من الأساتذة نخص منهم:

---

[80] – اختصار الأخبار، ص.30.

[81] – ابن عذاري، المصدر السابق، ص.398.

[82] – كانت فكرة الكتاب وجزؤه الأكبر من تأليف أبيه الشيخ أبي العباس العزفي وقام هو بإتمامه وإخراجه في صورته النهائية.

[83] – الوراكلي، المرجع السابق، ص.63.

[84] – إسماعيل الخطيب، المرجع السابق، ص.349.

1 – أحمد النامسي (ت 792 هـ/1391 م)
2- قاسم بن أبي حجة الأنصاري
3- أبو بكر الشريف الحسني الإدريسي
4 – علي بن الهلال الحضرمي
5 – محمد بن عبد الله بن أبي زيد العبدري
6 – محمد بن محمد أبو بكر القلوس
7- عبد الرحمن الهزميري
8 – علي بن هلال

ودرست بالمدينة كتب منها: «رفع الحجاب » و« التلخيص » لابن البنا و« الجبر المقابلة » لابن بدر.

*** الطب:**

ينتشر بالمدينة بشكل واسع وتوجه أحيانا دروسه للمرضى مباشرة، كما كان يحصل لمحمد بن عبد المنعم الحميري الذي يقدم دروسا في مواد مختلفة « وآخر ذلك دولة في الطب (...) ويدخـــل إليه أصحـــاب العـــلل والزمنى شيوخا وكهولا لحضور دولته الطبية »[85]. وكان بالمدينة عدد مهم من الأطباء يقدمون معارفهم لمن يقصدهم. وتحتوي المكتبات العامة والخاصة على كتبه ويقصدها الطلبة ويجدون المساعدة من القيمين عليها كما سبقت الإشارة إلى ذلك أعلاه[86]ومن الكتب المتداولة بالمدينة[87]:

- كتب دياسقوريدس وابقراط وجالينوس
- كتب الزهراوي والرازي وابن سينا وابن طفيل

قدمنا نظرة موجزة عن المواد المدرسة ومدرسيها والكتب المعتمدة ويلاحظ أنها تتميز بخصائص عديدة أهمها اتجاهها في خط واحد ووحيد. فهي إما علوم شرعية تشكل هيكل المواد المدرسة أو مواد مساعدة على فهمها مثل اللغة أو توضيح بعض أسرارها مثل الحساب والتاريخ. وهذه الخاصية تجعل المدينة ملتزمة بالخط الموجود في الغرب الإسلامي والعالم الإسلامي كله[88]. ولا تحظى العلوم العقلية -كما هو الشأن في المنطقة– إلا بعناية محدودة، لأن أهل المدينة يحذرون منها ويتجنبونها. فهذا عياض يواجه كتاب الإحياء للغزالي لأنـــه يستعمـــل الجـــدل وعلم الكلام في الأمور الدينية وعمل على تلخيصه ليزيل منه ذلك. ووجه ابن خلاص أبو علي تهمة الاشتغال بالفلسفة لعبد الحق بن إبراهيم بن سبعين لما شاع أمره كمتصوف، وقال عنه:«اشتم رائحة الفلسفة والأفكار الخطيرة فأجبره على مغادرة المدينة »[89]. وهكذا يمكن القول إن النقاش المعتمد على الحفظ والتذكر في المسائل الشرعية قد يصل إلى حد الصدام، لكنه يخبو ويضعف عند الوصول إلى الأمور العقلية وإبداع الأفكار الجديدة والانفتاح على المجهول وهذا الأمر سينعكس على طرق التدريس في المدينة.

---

[85] - بلغة الأمنية، ص. 25.
[86] – نفسه، ص. 55 .
[87] – نفسه، ص.54.
[88] – ابن خلدن، المقدمة، ص.536.
[89] – إسماعيل الخطيب، المرجع السابق، ص.371.

2-4- طرق التدريس:

2-4-1- وقت الدروس:

يظهر أن هناك أوقاتا محددة لتقديم الدروس، فهناك الفترة الصباحية التي تمتد من الفجر حتى الضحى، فمثلا كان محمد بن علي بن هانئ اللخمي (ت 733 هـ/1333م) بمسجد القفال «يرد ظهره إلى جدار القبلة من بعد صلاة الصبح ويمشي دولة إثر دولة في الفنون العلمية إلى أن تزول الشمس »[90]. وفترة مسائية تمتد بين صلاتي الظهر والعصر. وقد ذكر صاحب " البلغة " أن سعيد الأنجري (ت 789 هـ/1388م) «يدرس بالجامع الأعظم إثر صلاة الجمعة »[91] وخارج هذه الأوقات يقوم الأساتذة والطلبة بالأنشطة التي يكسبون بها قوت يومهم أو يراجعون ما درسوه بشكل منفرد.

2-4-2- طرق التدريس:

كان نظام الحلقة النظام السائد في إعطاء الدروس في سبتة، وفيه يستند الأستاذ إلى جدار أو سارية في المدرسة أو الجامع[92] وقد يجلس على كرسي عندما تكبر حلقته ويكثر طلبته[93]. ويتحلق الطلبة حوله على شكل نصف دائري. ويجلس قربه التلاميذ المواظبون والنجباء وخلفهم الأقل منهم إلى آخر الحلقة حيث يجلس الطلبة الآفاقيون وعابرو السبيل والفضوليون من عامة الناس مادام التعليم مفتوحا في وجه الكل دون حاجة إلى الانتساب الرسمي باستثناء المدارس.
يعتمد التدريس في سبتة على الإلقاء والمحاضرة كأساس لذلك يتكرر مدح الأساتذة بحسن الإلقاء والتعليم[94]. وداخل هذا الإطار يجتهد كل مدرس ويعمل على تقريب علمه إلى طلبته. فمنهم من يلتزم الإلقاء الصارم كما هو شان محمد الأنجري الذي يعتمد «فصاحة منطق وحسن إلقاء من غير توقف ولا تلعثم ولا ترجيع ولا تكرار إلا أن يقصده، يسمع الداني والقاصى من غير اختلاف بحرف ولا تغير لمعنى وإن دق »[95]. ويلجأ آخرون إلى الشرح والتفصيل والتوضيح والتبسيط كما يفعل أبو بكر الشريف الحسني الإدريسي إذ « يوجه الأقوال وينفصل عن الاعتراضات ويقرب العبارات إلى أفهام المبتدئين من الطلبة »[96]. ويحاول أساتذة خلق جو من المرح والحبور في الحلقة بسرد الحكايات والنوادر خلال مراحل الدرس لإبعاد جو الملل واستقطاب الطلبة[97].
ويعتمد نظام الإلقاء على مجموعة من المؤهلات من جهارة الصوت وقوته والفصاحة والقدرة على الاسترسال وجودة الحفظ وسيادة الصمت في الحلقة.

---

[90] - بلغة الأمنية، ص.23.
[91] – نفسه، ص.39.
[92] – نفسه، ص.23.
[93] – الوراكلي، المرجع السابق، ص.23.
[94] – بلغة الأمنية، ص. 37 و 43 و 45 و 49.
[95] - نفسه، ص. 45-46.
[96] – نفسه، ص.49.
[97] – نفسه، ص. 43 و 49

يسود الحلقات صمت رهيب يقطعه صوت المدرس الذي لا يتردد في زجر من يخرقه. وتتقلب أعين الطلبة بين المدرس والكراسات التي يسجلون عليها بعـــــض شروحه[98] مادام متن الدرس كتابا معروفا لديهم وكرسات الزملاء لاستدراك بعض ما فاتهم . فلا يشاركون في مناقشة أو إبداء رأي اللهم بعض الاستفسارات النادرة. وفي أماكن إقامتهم تأتي المرحلة الصعبة وهي حفظ متن الدرس وشروح الأستاذ لأنها الطريق الوحيد إلى الإجازة.

إن هذا النوع من التدريس يمجد الحفظ ويعتمد التذكر. فالأساتذة يتفاخرون بالإملاء من حفظهم دون العودة إلى الكتب[99] والطلبة يتسابقون إلى حفظ ما تلقوه. وعندما تحصل مناقشة تتركز حول إتقان حفظ ونقل مسألة وغلط أحد الأطراف في ذلك[100]. ودفع حب الحفظ إلى نسج أساطير حول الأشخاص الذين يملكون هذه الملكة. وقد احتفظت " البلغة " بأسطورة حول محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري جاء فيها: « ويذكر عنه أنه أكل البلاذر ونقعه في الماء مع القمح حتى سرى فعله إليه وأطعم ذلك الحب دجاجة، ثم إنه ذبحها وطبخ لحمها، ووقف في صهريج مملوء ماء عريانا وأكل اللحم وشرب المرق على تلك الحالة، قال وإن جسده ليشتعل من شدة حرارته (...) فبقي على ذلك مدة ثم اعتدل مزاجه وتنبل عقله واشتد حفظه »[101](101). لقد حولت هذه الملكة إلى أسطورة تمتلك بأعمال تشبه عمل السحرة والمشعوذين، وما كان هذا ليحصل لولا الدور الكبير الذي يلعبه في كسب العلم وإثبات المكانة العلمية ونقله إلى الآخرين.

خاتمة

عرفت سبتة نشاطا تعليميا كبيرا خلال فترة الدراسة بفضل توفر الشروط الموضوعية لذلك من مؤسسات وأساتذة وإقبال السكان إلا أن نظامها التعليمي عرف عقما وجمودا في طرقه حيث اعتمد الحفظ والتكرار وإعادة إنتاج بدل الإبداع والخلق واعتماد العقل، كما ظل متمسكا بالعلوم النقلية المرتبطة بالشرع والآداب. وهي تعكس الوضع الذي عرفته الحياة العلمية في المغرب والأندلس في نهاية القرون الوسطى .

%

[98] – نفسه، ص. 37، قال عن محمد الوادي لاوي: " فكان الطلبة يمسكون الشروحات بين يديه".

[99] – نفسه، ص. 25 و 37

[100] – نفسه، ص. 37.

[101] – نفسه، ص. 25. ويشبه هذا ما يسود عندنا في الجنوب المغربي من أن أكل قلب الهدهد نيئا يقوي ملكة الحفظ ويرفع درجة الذكاء.